



جماليات قصيدة المقاومة الحضارية في الشعر الفلسطيني
عزالدين المناصرة - أنموذجا

The Aesthetics of the Civilizational Resistance Poem
in the Palestinian Poetry: Aziz Al-Munawwarah as a Sample

فاطمة الزهراء زهدور¹، محمد مرتاض²

¹ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، Fz.zahdour@gmail.com

² جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، Cmortad2002@yahoo.fr

ملخص:

كل قارئ لشعر المناصرة، يلمس تلك الوشائج العميقة التي يقيمها الشاعر مع تاريخ بلده الكنعاني فلسطين، ومع الأساطير القديمة التي تجعل من متنه الشعري تجربة باذخة ارتشفت من عديد المنابع والمشارب الشعرية والمعرفية؛ هذا المسار الزاخر الذي تداخلت في صقله جوانب متعددة؛ أولها رؤية شعرية فنية رسم معالمها بتقنيات حدائية تركز على الجمال والفن، وثانيها رؤية أكاديمية نقدية مكنته من فرض تجربته الأدبية على مستويات ثلاث: المناصرة مقاوما، وشاعرا، وأكاديميا ناقدا. وتعدّ فكرة تبني المقاومة الحضارية مشروعا رائدا انتهجه المناصرة في كتاباته الإبداعية للتعريف بالقضية الفلسطينية. وانتقاؤنا لهذا البحث، خطوة لتحديد خصائص قصيدة المقاومة جماليا وفنيا.

كلمات مفتاحية: المقاومة الحضارية، فلسطين، الشعر، المناصرة، الجذور الكنعانية. الجماليات.

Summary:

Each redear of Al Menasrah' s poetry touches the deep ties that poet establishes with the history of his Canaanite country Palestine and with the ancient legends that make his poetry a unique and luxurious.

Experience inspired by many poetic and epistemological source, so he was able to impose his literary experience on three levels: Al Menasrah as a resistant, poet, and academic critic. The idea of adopting civilized resistance is a pioneering project adopted by Al Menasrah in his creative writings to define the Palestinian cause. This research is being studied to determine characteristics of resistance in an artistic aesthetic study.

Keywords: civilzed resistance, Palestine, Al-Menasrah, poet, Cannanite roots, the aesthetics.

1. مقدمة:

شكل المناصرة الأنموذج المتفرد في الجمع بين أصالة التراث وحدانية المعاصرة، فأعماله الأدبية غنية بملاحمها الجمالية، تجمع الخبرة الإبداعية والأحاسيس المرفهة واللغة الراقية مع استحضار الموروث العربي والشعبي المتجذر في التاريخ. بالإضافة إلى تداخل المجالات في صقل شخصيته، جعلت أعماله تتسم بالخصوصية والاستقلالية مستجيبة لشروط الشعارية والجمالية دون أن تهمل غايتها الوطنية أو المعرفية، وزاوية أخرى تتعلق بشخصية المناصرة تطل علينا من شرفة النقد؛ تسفر عن ثقافة نقدية متألفة: تعالج معاناة الشعر والنثر، وقضايا نظرية الفاعلية والحداثة والمعاصرة، وإشكاليات النقد الثقافي والنقد المقارن، كل هذه القضايا تبرز ملامح التجديد والانفتاح. وهنا نسلط الضوء على إحدى الإشكاليات التي أثارها شعر المناصرة في الشعر العربي المعاصر: ما الذي أضافه الشاعر عز الدين المناصرة إلى قصيدة المقاومة؟ وما هي المكونات التي تفرد بها المناصرة حتى يتوج بلقب "شاعر قصيدة المقاومة الحضارية"؟

2. الانتماء الحضاري:

أولا ينبغي معرفة العوامل التي أثرت في رسم هذا المسار الثقافي الزاخر للشاعر فننتبع ظروف حياته منذ نشأته بفلسطين ثم انتقاله الإجباري بعدها من وطن إلى آخر، إذ فرض عليه المنفى الاستقرار في دول جديدة حتى ارتبط اسمه بشعراء المقاومة في المنفى، لكنه بنى لنفسه رؤية مختلفة متعلقة بالمقاومة، يقول في ذلك: «أنا شخصا، أنتهي لفرع شعراء الثورة، طبعاً هناك شعراء في الثورة أيضاً رفعوا شعارات سياسية في شعرهم المهم هو أنني غردت خارج الشعارات، حيث كتبت قصيدة مقاومة لم يكتبها أحد غيري هي (قصيدة الجذور)، أو (قصيدة المقاومة الحضارية الكنعانية)¹، ولا شك أن هذا الانتقال من بلد إلى بلد قد صقل عنده التجربة الشعرية فاكسب مصادر ثقافية متعددة وأسهمت تلك الأماكن في تحرير مؤلفاته. علق قائلاً في إحدى حواراته واصفاً حالته في بلاد المنفى «كنت أحظى بالاحترام رغم الصعوبات التي كنت أواجهها... أما القصيدة، فقد كتبت أجمل قصائد في المنفى، كتبت عن بيروت الديمقراطية، والقاهرة

الشعبية، وطنجة العالمية، وتلمسان الأندلسية، وتونس القرطاجية، ولدى قراءة أعمال الشعيرة يكتشف القارئ كل هذه العوالم رغم أن الروح فلسطينية أو بدقة كنعانية شامية»².

1.2 شعيرة الكنعنة:

لقد عرفت فلسطين حروباً وغازات كثيرة عبر مراحل تاريخها الطويل، وسكنت على أرضها شعوب وقبائل عربية وسامية، فأسهمت هذه المتغيرات في تنوع الأفكار والثقافات وتتابع الحضارات في الأرض الواحدة جعلتها مصدر اختلاف مجالات التواصل بين أصحاب الأرض والشعوب الوافدة إليها، كما أرتخ التاريخ الفلسطيني هجرة القبائل السامية إلى فلسطين وجاء إليها أيضاً «الحيثيون والمصريون والبابليون والآشوريون والكلدانيون، وغازا اليونانيون والفرس والرومان، وحكمها الأبناء الكنعانيون العرب الأصليون»³.

وفي سياق الحديث عن تجربة المناصرة الإبداعية ينقلنا شعره إلى عمق التاريخ الكنعاني لنقرأ قراءة فاحصة قصائده وأثر المنهج الأسطوري الذي برع فيه، والأسطورة كلمة مشتقة من الفعل: سطر.. والسطر هو الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها...، ونقول: أسطار وأساطير... وسطر يسطر أي قام بفعل الكتابة، ويعرفها ابن منظور في لسان العرب بقوله: «والأساطير: الأباطيل، والأساطير إذا جاء بأحاديث لا نظام لها تشبه الباطل...»⁴.

وأشار عز الدين إسماعيل إلى أن مصطلح "أسطورة" لفظ اعتراه الكثير من الغموض بسبب الدلالة الاشتقاقية التي تطورت لغوياً من Mythos إلى Epos ثم صارت Logos⁵ وقد عزا هذا الاختلاف أو تطوره إلى رؤية الإنسان في بداية وعيه إلى أن الأسطورة هي الكلمة التي تثبت وجوده الإنساني فتميزه عن باقي الكائنات، ثم تطورت إلى «الكلمة التي تعني تركيبة من الأحداث تستغرق زمناً، إلى الكلمة التي تعني طرازاً من القيم العقلية»⁶.

ثم وظف الإنسان المعاصر هذا اللفظ ليعبر عن جملة التناقضات التي يلقيها في الحياة الجديدة كأنه يستجدي المنهج الأسطوري القديم ليجت من حلول لتلك المعادلات المهمة الغامضة كما كانت الحال عليه بداية وعيه الأول. ويضيف محمد حسن عبد الله إلى أن «الدافع إلى استعمال الأسطورة في الشعر ليست مجرد معرفتها، ولكنه محاولة إعطاء القصيدة عمقا أكبر من عمقها الظاهر، ونقل التجربة من مستواها الشخصي على مستوى إنساني جوهري أو هو بالأحرى حفر القصيدة في التاريخ»⁷.

2.2 الأسطورة والشعر:

لقد صارت الأسطورة رديفة الشعر، كلاهما يتصل بالآخر، هما شيء واحد لا انفصال بينهما، ومصدر إلهام للشاعر أو الفنان، وهي المنبع الأصيل للإلهام الأدبي، لذا أضحت الحكاية والرواية والقصيدة والشعر تعبيراً عن الطابع الفكري والفني للشعوب. لهذا «تعتبر الأسطورة

كالشعر، شكلاً رمزياً أصيلاً من أشكال الحضارة الإنسانية... إنه ذلك القالب الرمزي الذي تصب داخله أفكار الإنسان منذ ما قبل الفلسفة... وما قبل العلم كذلك»⁸.

وتعد الأسطورة من التقنيات الجمالية التي دأب المناصرة على توظيفها، حيث تفرغ لدراسة الأساطير القديمة خاصة الأساطير الكنعانية منها، يقول معترفاً: «بدلاً من استعمال الأسطورة اليونانية اتجهت إلى التراث العربي، وفيه الكثير من الأساطير والمواقف والشخصيات التي تمثل رموزاً، وكانت ملاحظاتي على الرواد أنهم يستخدمون الصور الجاهزة للأسطورة بحيث تبدو أسماء أبطال الأساطير ملصقات في جسد القصيدة، تماماً كالكلمات القاموسية القديمة التي تقف حجر عثرة أمام انسياب القارئ مع القصيدة»⁹ أكثر من ذلك، يسعى إلى تشكيلها في صورة معاصرة، ليرتقي بالذات الفردية إلى الذات الجماعية الإنسانية، فيكون لسان وطنه المقاوم ورمز الرجل الكنعاني الفلسطيني الذي يتحدى واقعا كثيباً فرضه الكيان الغاصب، هو صوت المقاوم الواعي المتطلع إلى الحرية والاعتناق. واللافت في استدعائه للأسطورة أيضاً هو قراءتها وتوظيفها بأسلوب مختلف يجعلها مشعة خاصة به تندمج وفق تجربته الذاتية لتنتقل رمز الأسطورة السطحي الذي انطلق من محاولات الإنسان البدائية لتفسير ظواهر الكون والفوضى العارمة التي تسود هذا العالم الموحش - في نظره - إلى معان كثيفة الدلالة، عميقة المشاعر، مرتبطة بالواقع، وهو ما جعل المناصرة يستحضر عناصر الأسطورة ليعود بالذات الإنسانية إلى عهد براءتها الأول، فيربط واقعته الشعورية الذاتية بالواقعة الأسطورية العامة، ويبني قصيدته معتمداً على أبعاد إنترولوجية تصنع العلاقة بين: الأسطورة/ الطبيعة/ الشعر/ الإنسان.

3. الطابع الحضاري في القصيدة:

نعرض مثالا عن الأساطير التي أدرجها الشاعر- وهي متعددة شتى- وعلاقتها بالمنابع الكنعانية في مدوناته الشعرية، لم يكن غرضه منها سردها سرداً نمطياً، بل أحدث (اختراقات، وإضافات) كثيرة، تجاوزت (التيار التّموزي) في الشعر العربي الحديث إلى آفاق أكثر رحابة واتساعاً¹⁰، في هذه الأبيات:

لكن يا جفرا الكنعانية
قُلب لنا إنّ الأشجارَ تسيرُ على الطّرقَات
كجيشٍ مُحْتَشِد تحت الأمطارِ
أقرأ أشجاري، سَطراً سَطراً، رَغْم التَّمويه
لكن يا زرقاء العينين ويا نجمة عَتمتنا الحمراء
كنّا نلهثُ في صَحراء التّيه
كيتامى منكسرين على مائدة الأعْمار¹¹.

زرقاء اليمامة: قصيدة بمزيج متناغم، تربعت على عرش شاعرية المناصرة ونالت حظاً متميزاً من اهتمامه، وظف فيها رمزين: أحدهما أسطوري أو شبه أسطوري تمثل في شخصية "زرقاء اليمامة" وهي امرأة من قبيلة جديس، زرقاء العينين، فائقة الجمال، ضرب بها المثل في حدة بصرها، وعرفت بصدق أخبارها حتى شاع عنها "أبصر من زرقاء اليمامة"، حذرت قومها من خطر يدهم أرضهم من مسيرة ثلاثة أيام، لكنهم كذبوها فانقض عليهم جنود غزاة، وعاثوا في قبيلتهم تقتيلاً ثم بحثوا عن الزرقاء فاقتلعوا عينها، والرمز الثاني الموسوم "جفرا" لفاتاة فلسطينية استشهدت برصاص الاحتلال الصهيوني في بيروت، وهي أيضاً رمز الأنثى الفلسطينية الصبية الفاتنة التي يحيل اسمها في الثقافة الشعبية الفلسطينية إلى دلالات مختلفة؛ هما رمزان يتقاطعان في شرح تفاصيل المأساة الفلسطينية. فاعلية المزج هذه تضيف روحاً جديدة للتعبير عن الأفعال والمشاعر والقيم التي تعترى الشاعر تارة، وتعطيه جرعة أمل للتطلع نحو المستقبل باستشراف ما هو آت طورا آخر، في ظل المعطيات السياسية والاجتماعية التي يعيشها الفلسطينيون داخل الأرض المحتلة وخارجها.

لعل استغلال شخصية زرقاء اليمامة في القصيدة إشارة إلى فلسطين المغتصبة التي تدق ناقوس الخطر وتوجه تحذيراً للأقطار العربية الأخرى، بعد المجازر الصهيونية التي ارتكبتها العدو في حق الفلسطينيين عام 1948، بالتالي تفضح مؤامرة غربية صهيونية تخطط لضرب الوحدة العربية وزعزعة استقرارها وظهرت الزرقاء بملامح أخرى لتحمل دلالة رمزية مكثفة يستحضر من خلالها الماضي البعيد. إن المناصرة يعرض وظيفة جفرا الكنعانية التي «تتماهى مع زرقاء في أقوالها وأفعالها وكل ملابسها، ولكنها تستقل عنها بهويتها الكنعانية الأصلية»¹²، فتصير أسطورة زرقاء فلسطين "جفرا" أقدر على امتلاك الحقيقة وتحقيق الغاية الفنية المتعلقة بالانزياح عن المعنى المقصود الذي يتماشى مع مقصده الشاعر:

لكن يا زرقاء العينين، ويا نجمة عثمتنا الحمراء¹³.

لقد أسفر هذا الامتداد التاريخي الذي يستجديه الشاعر في النص الشعري إلى ولادة رؤى أخرى لوظيفة الأسطورة، فقد تعدت المشاهدة البصرية الخارقة لزرقاء اليمامة إطارها الحسي ليستشرف الرؤية المستقبلية التي تحملها جفرا الكنعانية منذرة بخطر يحرق بالعرب منطلقة من ذاكرة ضاربة في القدم يعزز فيها عروبة أصله وأصل أرضه ثم يتنبأ بما هو أعظم من عدو لا يرحم؛ كيان يتفنن في إذلال شعبه وتتلاحق عليه مشاهد التهجير والقتل والتشريد والحرق والتيه في الصحراء، حتى تتفكك اللحمة الاجتماعية الفلسطينية لفلسطين، ويكثر اليتامى والمشردون، ويهيم المهاجرون في المنفى فتخلع فلسطين ثوب المقاومة وتدعن لقدرها المحتوم:

تخبأت في عبّ دالية ثم شاهدت من فتحة ضيقة

سكّاكينهم...والظلال
ثمّ شاهدتُ مَجْزرةً لَطَخَتْ بِالرَّمَالِ
وَشاهدتُ ما لا يقالُ
كَانَ الْجَيْشُ السَّفَاحُ معَ الفَجْرِ
ينحُرُ سكانَ القريةِ في عيدِ النَّحْرِ
يُلقي تَفَاحَ الأَرْحَامِ بِقَاعِ البُئْرِ¹⁴.

هكذا قدم المناصرة صورا جمالية وفنية متكاملة، ليسفر عن مقدرته الإبداعية في استلهاام بعض الملامح التراثية للشخصيات الأسطورية دون المساس بقدسية القضية الوطنية، بل برع في التعبير الصادق عما يهدده به همومه ويواسي أبناء قومه في ضائقته، فانتقى بعناية فائقة رصيده اللغوي ليمجد تاريخ بلده، ويعظم شأن أجداده، ويتجلد قوة وبأسا بالامتداد التاريخي الكنعاني كي يتمرد مقاوما غاضبا على الطغيان والقهر السياسي الذي كبل حرية شعبه، وفرض ستارا رهيبا من الهلع والاضطهاد على المثقفين والأدباء بقوة الرصاص والنار.

وحري بنا التطرق إلى الحضور المكثف للجد "كنعان" ضمن القصائد الشعرية، وارتباط حضوره بدلالات عديدة متداخلة لعل أبرزها تفاعل المناصرة مع التاريخ القديم وانصهاره في الأساطير وتماهيته في تفاصيلها ليعود إلى واقع فلسطين فيصور الواقع المرير بتقنية المتخيل، هذا الخيال يدفع بالمتلقي إلى البحث في التاريخ لتحليل ما يرمي إليه الشاعر ويحلل جزئياته فيكشف تلك الرؤية التفاؤلية التي تنطلق إلى الماضي البعيد فتبني تحولا من ظلمة المأساة إلى عودة الحياة بمسراتها وأفراحها، إذ يفرض ضرورة العودة إلى التاريخ حين قال: «دمجت في قصائدي بين الفلسطنة المعاصرة والكنعنة القديمة دون أن يظهر الفارق لأؤكد على قضية التواصل، وعلى الناقد الحصيف أن يقرأها بعمق ليدرك أنها كنعانية»¹⁵. هذا لا يعني أن المناصرة يتملص من مشاكل بلده وعمته واقعه، إنما يقوِّض زاوية التشاؤم وتدهور الظروف الحالية للفلسطينيين، فيؤسس تلك العلاقة المتفاعلة بين الحداثة والتراث. كما يدخل الشعر في تفاعلات الإنسان والآلهة.

ومن دلالات انتقاء رمز كنعان أيضا، إيمان الشاعر بخصوبة الأرض الفلسطينية التي تعطي أنموذجا دائما في الحب والعطاء، والنضال والالتزام بالقضية: «كنعان هو هويتي الشخصية، وقد تعرضت هذه الهوية ومازال للتشظي والفسيفسائية، لكنها مازالت تقاوم، لأن فن المقاومة فن عالي»¹⁶.

لذلك اتجه إلى تنويع الموضوعات في نصوصه، وهذا ما أهّل مساره الإبداعي ليرتقي بالشعر من الخطاب الإيديولوجي المباشر إلى شعر جمالي حضاري يقوم على الحداثة وتجديد الخطاب، مع

الالتزام بالانتماء وشرعية المقاومة. وهنا نطرح بعض الموضوعات التي تطرق إليها المناصرة في قصيدة زرقاء اليمامة:

- عروبة فلسطين (جفرا الكنعانية) / مقاومة العدو (كجيش محتشد) / مستقبل فلسطين (يا نجمة عتمتنا) / الوحشية الصهيونية (مجزرة / الجيش السفاح / لا ينحر سكان القرية) / ولهذا ما صدقك سواي (التنبؤ والاستشراف).
- الجد كنعان: رمز الأصل الفلسطيني وعروبة الأرض المحتلة.
- زرقاء اليمامة: أسطورة التحري والاستشراف والتنبؤ لمعرفة الحقيقة.
- جفرا: أسطورة القوة والثبات والمرأة الصامدة المقاومة.

فاعلية استدعاء هذه الرموز المتباينة في قصيدة واحدة هي تأسيس لبنية شعرية أسطورية، وبينة جمالية درامية، جمع فيها الشاعر مشاهد تشع حركة من الماضي والحاضر إلى المستقبل، واختار لتلك البنيات المتداخلة «ما يلائم تجربته من ملامح الشخصية المستعارة... وربما استعار الشاعر هذه الأحداث أو المواقف للتعبير عن دلالات تجريدية»¹⁷، فمنح نصوصه الشعرية وهجا دلاليا يخدم المرأة الفلسطينية والأرض العربية والذاكرة.

1.3 شعرية الألوان والمكان:

تعد الألوان في الطبيعة عنصرا من عناصر الطبيعة، وأحد مكونات الجمال الرباني، ولا شك أن لهذه الألوان الأثر البالغ في راحة النفس أو انزعاجها، فقد تشعر الإنسان بالهدوء والدعة مرة، وبالتشتت والصخب مرة أخرى، وتصبح هذه العلاقة بين المرء واللون علاقة ذاتية تتسم بالدوق والجمال. لأجل ذلك «عنيت العربية عناية فائقة بالألوان، وذلك على ألسنة شعرائها وخطباءها... حتى بات موضوع الألوان، من الموضوعات التي تفرد لها أبواب خاصة من مصنفات اللغويين المشهورين»¹⁸ وجه الأدباء والشعراء اهتمامهم بالألوان ودراسة دلالاتها لتوظيفها في موضوعاتهم الأدبية.

وعز الدين المناصرة من الأدباء الذين أجادوا قراءة اللون وتوظيفه في مساحات واسعة من نصوصه الشعرية، توظيفا متعدد الدلالات، أملت طبيعة شخصية الشاعر نفسه، وتعدد مواهبه واتساع اطلاعه¹⁹، فهو مولع بالألوان، مارس الرسم منذ صغره، وأحب طبيعة بلده، وتعلق بعناصر قريته الرعوية البسيطة؛ فتغنى بجمال طبيعتها، ووصف انبساط مروجها الخضراء، وتفجرت في مخيلته تلك الألوان حتى تمكن من إيضاح جمالية توظيف اللون، إذ صرح في مقابلات كثيرة: «كل ما حولي كان يضح بمتعة الألوان، وكان مزج الألوان يثير فضولي، فاكتشفت أن ما وراء اللون هو الأهم»²⁰.

في السياق ذاته، يعرض المناصرة نصوصه الشعرية فضاء متكاملًا للمتلقي، عامرا بالدلالات المكثفة، لينتبه القارئ إلى غزارة الألوان وتنوعها في مساحات كتاباته، ومن البديهي أن يتفطن المطلع على قصيدته الشهيرة "كفناه"، ويميز صلتها بألوان العلم الوطني الفلسطيني:

بالأخضر كفناه

بالأحمر كفناه

بالأبيض كفناه

بالأسود كفناه

بالمثلث والمستطيل

بأسانا الطويل²¹.

وهنا تتأسس الفاعلية الشعرية لنصوص المقاومة الفلسطينية، وتتداخل الدلالات لتقدم خطابا شعريا يعكس طبيعة العقلية الفلسطينية متضمنة الضمير "نحن" في الفعل المكرر "كفناه"، وهي دلالة وطنية ترسخ وحدة الكلمة وقداصة القضية. إن استثمار الألوان الوطنية مقترنة بالفعل "كفناه" إشارة إلى أنها الكفن الرسمي للشهيد الفلسطيني، والواضح أن التحام هذه الألوان الأربعة بطريقة متلاحمة متناسقة في القصيدة يبرز مدى ثبات أبناء الأرض المغتصبة على شرعية المقاومة والتعبير عن هوية الانتماء والجماعي إلى الوطن، بالإضافة إلى الرمزية التي يمثلها كل لون منها:

— الأخضر: يرمز إلى الدين الإسلامي الحنيف وإلى الأمل في حياة حرة مستقرة.

— الأحمر: يرمز إلى الدم، والثورة، والمقاومة، والانتفاضة.

— الأبيض: يرمز إلى النقاء الروحي والبراءة والشهادة في سبيل الله.

— الأسود هو رمز الموت والفواجع والشجاعة أيضا.

إن تفاعل هذه الألوان يعيننا على فهم المنظومة الإيديولوجية للعقلية الفلسطينية وتفسير مدى التزامها بالأبعاد التاريخية والاجتماعية والنفسية والثقافية لذات الفرد الفلسطيني بشكل عام وشاعرية المناصرة بشكل خاص. تفاعل آخر يربط الألوان بتكرارها على مستوى المقاطع الشعرية فتجعل النص ينفجر حد البركان، يبعث شعلة غضب ضد الطغيان ولا يأبه لعدد الموتى أو الجرحى، بل الأهم أن الفلسطيني رجل ثوابت يركز على قضية الوطن؛ ينطلق من حياته الآنية بكل ما تحويه من مشاهد درامية فيواجه الظلم ويثور على الظالم ويتحرك بذلك المجتمع الفلسطيني لإحداث انتفاضة كبرى: الانطلاق من الذات الفردية إلى الذات الجماعية.

من زاوية أخرى، يتدخل المناصرة ليفصح عن التطور الذي طرأ على أسلوبه في قراءة الألوان ثم توظيفها في سياقات مختلفة تضمن الانزياح عن المعاني الأصلية المعتادة، فقد أكد في الكثير من مداخلاته رؤيته حين يقول إنها «تعبّر عن حالة روحية وأنا لا أفكر في دلالات الألوان التقليدية فقد تكون السماء حمراء في قصيدتي وقد يكون العشب أزرق. إنها تعبّر عن حالة روحية من خلال مفارقات اللغة»²². قد تتعلق تلك المفارقات عند الشاعر بالزمان والمكان والتاريخ والأرض، فالأخضر مثلاً لون مسيطر على قصائده مثل أبعاداً متباينة عبر النصوص وأعطى حركية جديدة للمعاني، «لست أنفي الإحساس التقليدي أن "الأخضر" له علاقة بالأرض، ولكنه هاجس يعتدل في داخلي أقاوم فيه الحزن إذ إن الأعشاب الخضراء تولد في الآثار القديمة، أي أن الجديد يولد من القديم، إنني أرى الحجر أخضر والسماء خضراء والبحر أخضر، إنه نفي الجمود عن الكائنات»²³، من هنا تتضح كثافة استعمال اللون الأخضر لديه فالشاعر ابن بيئة رعوية بالدرجة الأولى واللون الرعوي يبلّث الحياة في النفوس ويبعث النشاط والحركة، وله دلالات أخرى: الأخضر أوعدني، والأخضر، حين يقول.

يَفْعَلْ، مَا قَالَتْهُ حَبِيبَتُهُ الْخَضْرَاءُ.

وَالْأَخْضَرُ جَذَرُ الْأَرْضِ،

صَدِيقُ الشَّمْسِ الْحُمْرَاءِ.

الْأَخْضَرُ صَوْتُ الْحَجَرِ النَّارِي.²⁴

إن الدلالة الكلية للون الأخضر هي فلسطين، ثم يتكرر الأخضر في كل جملة شعرية ليقدم دلالات نفسية تتعلق بالشاعر نفسه، وتعبّر عن تجارب خاضها في المنفى ليضفي ذلك الطابع الحضاري على القصيدة، والمتفق عليه «أن استخدام الشعراء للألوان لم يقف عند حد تخطيط الصورة أو إبرازها بالشكل الذي يحقق لها اللون، وإنما كان الدافع لذلك هو جعل هذه الصورة محفوظة بإطار من الأبعاد المتحركة بذاتها، تضفي عليها الألوان ميزة ربما كانت تفتقر إليها قبل الإضاءة»²⁵ تخضع بعدها إلى التأويلات المختلفة ويجتهد المتلقي لحل شفراتها، لكن ما نتفق عليه أن المناصرة سخر اللون الأخضر للتفاؤل والأمل، فهو يرسم معالم الحرية لفلسطين في ظل سيطرة قوى الشر على أرضه، والنكسات المتتالية التي حاقت بشعبه رغم شرعية المقاومة وعدالة القضية: (ما قالت حبيبته الخضراء)، الأخضر أيضاً رمز للثبات والاستمرار على نهج الحق لاسترداد ما ضاع من الفلسطينيين إنه لون الوعد على نيل المطالب، (الأخضر أوعدني)، هو أيضاً رمز المقاومة والانتفاضة والتضحية والأسطورة (والأخضر جذر الأرض)، (الأخضر صوت الحجر الناري، وصوت الآثار)، الشهادة والخلود في ذاكرة الوطن (الأخضر يولد حين يموت).

هذا التوظيف المتنوع للألوان وفق تفرعات متعددة جعلت المناصرة ينقلها من حدودها المعهودة إلى مستويات إيحائية وعاطفية وأسلوبية، فاتكأ على خلفيات مستقاة من البيئة الخصبة: المكان الفلسطيني ومكوناته، القضية الوطنية وواقعها، المنفى ومشكلاته. صارت إثرها التجربة المناصرة رائدة في نقل الألوان من مستواها المألوف إلى مستوى ذي دلالة انفعالية شعورية، قد تجلت في استخدامات الأخضر والأسود والأحمر والأبيض والأزرق والأصفر عبر مساحات كبيرة من النصوص، أكسبت مدوناته الشعرية صوراً تفاعلية حديثة معبرة أهلته ليكون من شعراء المقاومة الحضارية المرموقين ورواد الشعرية المعاصرة.

4. المعجم الشعري:

يعرف النقاد المعجم الشعري أيضاً بالقاموس الشعري Dictionary Poetic، وقد وضع المهتمون بهذا المجال تعريفات كثيرة منها أنه «ذلك الرصيد الضخم من الألفاظ التي يستخدمها الشعراء الأقدمون، والكلاسيكيون من الشعراء في العصر الحديث كل في غرضه ومقصده»²⁶، كما يعرفه بعض المحدثين على أن: «المعجم الشعري عند شعراء المدرسة الحديثة هو ذلك الرصيد الضخم من الكلمات الشعرية مما سلس لفظه، وعذب معناه، وألفاظ السابقين ومما تحتاجه لغة الشعر من الألفاظ العصرية، كي يؤدي الشعر رسالة كاملة في الحياة»²⁷، ويضيف متخصصو الحقول المعجمية أن المعجم يتجاوز المفردات لأنه قابل للإثراء والزيادة؛ وهنا نشير إلى ما قدمه (جون ديوي) في أطروحته الموسومة "المفردات السياسية والاجتماعية في فرنسا من 1872 إلى 1886"، التي أبانت عن مدى تطور المفردات ومعانيها بسبب الأوضاع الفرنسية آنذاك، بالإضافة إلى دراسات العالم اللغوي جورج ماطوري في كتابه "منهج علم المعاجم" المتعلقة بدراسة المفردات والوحدات المعجمية لكل ميدان أو قضية.

1.4 ألفاظ الحزن:

كانت حياة المناصرة عامرة باللحظات الحزينة؛ هجرته القسرية من قرية بني نعيم وهو يافع صغير، ثم انتقاله الجبري في المنفى من بلد إلى بلد، وحسرتة على أوضاع وطنه الذي يرنح تحت وطأة المحتلين، وسلسلة الاعتقالات والمجازر التي تطال الفلسطينيين في كل وقت وحين، كلها مراحل مؤلمة تركت آثارها في نفس الشاعر وخلفت لديه تجارب أليمة قاسية أقلقته مضجعه وأرهقت روحه، فأسهمت في نتاج معجم شعري يعج بالمفردات المتعلقة بالجراحات العميقة، من هذه الألفاظ: (الموت، الحزن، الألم، الجرح، الأسى، الدمع، التشرد، الهلاك، الرحيل...):

وبَكَيْتُ فوقَ الجسرِ بينَ القدسِ فالوادي السَّحيقِ

وصَرَخْتُ من يَأْسِي ومن طَوَّلَ السَّفَرِ

لَوْ مَاتَ فارسُكَ المَجِيدَ ومَاتَ ناطُورُ الشَّجَرِ

فادفن عظامك، يا حبيبي، تحت كزمتنا، على الجبل العتيق²⁸.

وعلى الرغم من تراحم مفردات الحزن في هذه الأبيات؛ إلا أن نافذة الأمل عند المناصرة لا توصل، بل إن غريزة البقاء باقية في رحم الأمة: (ويسح في الشام المطر، تنمو، وتخضر العظام، فادفن عظامي وانتظر)، هي إشارة إلى أن الحياة ستتعاقب على الأرض وإن فقدت الأرض أبناءها وأبطالها، سيتمسك الأبناء بطينة فلسطين وجذورها لتزهر شجرة "الكرمة" جيلا جديدا يعيد الحياة لفلسطين فيشرق فجر الحرية عليها ويستمتع أهلها بالنصر. الموت إذا ليس النهاية، هو مرحلة مؤقتة ليظهر الأمل من جديد في الفعل (تخضر).

2.4 ألفاظ الطبيعة والحب:

لا غرابة إن قلنا إن الجمال في الطبيعة ينعكس على النصوص الأدبية شعرية كانت أم نثرية، ولأن الإنسان هو كلمة الله وخليفته في الأرض، يتأمل الكون ويحاكي حركاته وسكناته، ولا يتوانى عن متابعة ما يجري في الطبيعة، بل يتفاعل معها ويستأنس بها. إنك لا تجد إنسانا سويا يمجّ الجمال الزباني أو يرفض صوره وتفصيله، بل هو السعي الحثيث منه إلى تمثيل كل ما هو جميل تلمحه عينه وتسمعه أذنه وتشعر به جوارحه، فترتقي تلك السمات الجمالية من شكلها الحسي البائن لترتقي مشاعره وأحاسيسه، فتصفو نفسه، وتسمو روحه، لتحقيق سلامها الداخلي، ثم تترجم ذلك السلام لتتجلى البصمات الجمالية الفنية.

وقد أشرنا سابقا في هذا البحث إلى أن المناصرة ابن بيئة عربية ساحرة، يهيم بجمال فلسطين ويتغنى بتضاريسها، ويصف أدق تفاصيلها؛ وهي ميزة يشترك فيها شعراء المقاومة من فلسطين حيث «تبدأ أولى مراحل الدخول والتفاعل، وتبدأ العلاقة بين العلة والمعلول الإنسان والطبيعة... فإن انعكاس وجود الطبيعة هو حوار مع الذات الشاعرة وهمومها الأولى التي تعي المرأة الشريك الأول في مقدمتها»²⁹، ويتجلى اهتمام المناصرة بالطبيعة في كل دواوينه: يا غنب الخليل، الخروج من البحر الميت، مذكرات البحر الميت، قمر جرش كان حزينا، بالخضر كفناه، رعويا كنعانية، لا أثق بطائر الوقواق. يتضح تعلق الشاعر بالطبيعة من خلال تسخير لعناصر متعددة في النص الواحد، لتكون جزءا فاعلا من تجربته اليومية، ولسانا معبرا عن القوام الإنساني بصورة جديدة مبتكرة، يتناسب إشراكها مع الحالة الانفعالية التي تسيطر عليه:

في حقلٍ مهجورٍ

كَم شَجَرَةٍ بِلَوْطٍ شَنَقْتُ قَدْلَهَا فِي قَلْبٍ زَجَاجَةٍ

وَشَوْتُ حَبَّتَهَا سَأَمًا فِي قَاعِ الشَّمْسِ الْوَهَاجَةِ .

حِينَ يَكُونُ النَّصُّ

غَرَابًا شَرِبَ الْبَحْرَ الْأَسْوَدَ، قُرْبَ الْغَابَةِ

مَا عَرَفَ الدَّمْعَةُ فِي عَيْنِ الْأَرْمَلَةِ.³⁰

يلتفت المناصرة إلى الطبيعة لينهل من مكوناتها فيصور حالة شعورية تنتاب أي إنسان يصارع غربة المنفى وغربة البعد، وفواجع الفقد والظلم والهميش، والاستعانة بهذه العناصر ظاهرة في المساحة الشعرية ليشكل أمامنا صورة جمالية بين الإنسان والطبيعة: (كم شجرة بلوط شنقت قذلتها في قلب زجاجة)، (الشمس الوهاجة، غرابا شرب البحر الأسود).

ثم نجده يتفاعل مع أماكن أخرى غاية في الروعة من الجمال الأندلسي، متمكنا من استدعاء صور من الطبيعة وأخرى من الآثار القديمة ليشكل العلاقة بين الشاعر والأطلال القديمة، مع مراعاة المرجعية الثقافية والفنية التي تضمن قوة القصيدة ومتانة جزئياتها، «ويخطئ الشاعر إذا ركز على صور بعينها في قصيدته، من غير نظر إلى تماسكها مع سواها، وغير تنبه إلى كونها تستمد حيويتها من شرايين تضامنها في جسد القصيدة»³¹، نلمس هذه الحيوية في (قصيدة ليلة الافتتاح):

تدلّت على قبرٍ أندلسي،

تراجع منهزما،

في الأعالي السّحيقة من تلم

في صقيع الصّباح

تدندن أغنيةً لوئها

لم يكن في قصائد لوركا

ولا في رؤسوماته

فوق جدران غرناطة العرب الرّاحلين.³²

في هذه الأبيات مزج جمالي دلالي في قمة الإتقان، جمال من الطبيعة على وقع الأطلال الإسلامية بغرناطة وتاريخها العريق، يتوقف المناصرة عند الجمال الطبيعي للحضارة الأندلسية، ويختار "تلمسان" أنموذجا لتشكيل الصورة القديمة الحاضرة وفق بناء هندسي متناغم، فالصور الطبيعية من جبال شامخة وبحار مترامية الأطراف تسرد حكايات لتقدم حضاري علمي كتب أمجاد المسلمين بماء من ذهب؛ نبغ هناك علماءهم وأجاد شعراؤهم فهاموا بتلك «الحياة المتنوعة والأجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والأمطار المتصلة، والأدواح الظليلة...، فصفت أذهانهم وسما وجدانهم وعذب بيانهم»³³، ثم تصطدم بانحدار تلك الحضارة حين يعلن المناصرة تتابع الانهزامات بعد الانتصارات والإنجازات في جملة (تراجع منهزما، فوق جدران غرناطة العرب الرّاحلين) وتتداعى مشاهد التهاون العربي أمام الغزوات الصليبية بسبب ضعف المسلمين وانغماسهم في اللهو والغناء والرقص وحب الدنيا بعد سجل حافل بالبطولات وفتح الأمصار. إن توظيف عناصر طبيعية

مركبة من الحاضر إلى الماضي يجعل المتلقي يعي الحالة الشعورية التي تعترى الشاعر في تحوله عن وطنه، «وقد أدى هذا التحول المكاني للشاعر إلى جعل الطلل شاهداً شاخصاً، وموقفاً حاضراً للمكان في قصائده الكثيرة التي ورد فيها ذكر الطلل واستذكار الديار والبكاء عليها»³⁴

إن الوعي الشعري لدى المناصرة يعتمد على إعادة إحياء ذلك الطلل القديم الذي يتحول - في نصه الشعري- من تبتد العالم الإنساني هناك إلى إعادة إحياء عنصر من عناصر الجمال لإظهار الحياة في القصيدة، «هذا الوجود الجمالي المحض لذة ولينا، وتواصل وحبا وخصوبة»³⁵. ومما لا شك فيه أن المناصرة قد أدار كل هذه الصور الحسية والمعنوية والوجدانية بأدوات جمالية حققت توهجا دراميا للنص ودلالات مفتوحة لدى القارئ. وتلتحم صور وصف الطبيعة عند الشاعر مع صور أخرى؛ إذ تقتزن من حين إلى آخر بمشاعر جياشة تنساب انسياباً في أبياته حيناً، وترتدي أحياناً ثوب التناقض والغموض، نلمسه متفائلاً ينسج خيوط الأمل لنفسه وشعبه فيتوغل في الوجدان العربي كي يحقق منطقة اتصال بينه وبين القارئ، ويعرض أيضاً على مساحات من جسده الشعري آهاته وجراحاته متحسراً على أوضاع وطنه المزرية، بيد أن روح الشعر تفعل فعلتها فتفجر في نفس الشاعر عاطفة الحب، فتزدان قصيدته بتفاصيل حبيبتها وصفاً وغزلاً وغاية:

سلاماً يا فروتا الورد والرمان
أحبك مثل حارس من التفاح والبرقوق
أحبك مثل مارقة بقلب السوق
أحبك مثل كوز التين بالأنداء.
غُيُونُكَ فيها وَهَجٌ.³⁶

إضافة إلى ما سبق؛ تعج هذه الأبيات بالألفاظ المعبرة عن الحالة الوجدانية للشاعر فهو يصرح بحبه لحبيته بعفوية الطبيعة ونقاءها، ويسبغ على جملة الشعرية تلك الصورة الأولى لطفولته البريئة في بلدته الرعوية (الورد والرمان، حارس من التفاح والبرقوق...) ليرتبط حب الشباب بنقاء الصبا وطراوة الأرض كأن لسان حاله يقول: إني هنا أغني للحب وللوطن وللقضية، أحافظ على اخضلال عودي حتى تزهو فلسطين الكنعاني.

5. خاتمة:

إن المتأمل في شعر عز الدين المناصرة يميز الاختلاف الجلي بينه وبين شعراء المقاومة، ولعل أهم سمة برز فيها الشاعر وضع لمسات فارقة جعلته أبرز شعراء الحداثة الشعرية العربية، فقد أضاف إلى الساحة الأدبية خصائص جمالية معاصرة:

- تمكن الشاعر من التواصل مع أجناس أدبية وفنية مختلفة أسهمت في تجديد مسارات الشعر العربي كالنقد والفن التشكيلي، والموسيقى، والسينما، والمسرح.
- تفاعل المناصرة مع الجذور التاريخية الكنعانية حد الانصهار جعلت منه مؤسساً لبنية شعرية أسطورية حديثة بمنظور فني جمالي وحس درامي لافت.
- اهتمامه بالألوان ومعجم الطبيعة جعله يقدم صورة قديمة حديثة للأرض الفلسطينية فامتزجت المعاني بحب الأرض والمرأة والذاكرة الفلسطينية، وحقق هذا التنوع تقاطع دلالات النص مع نصوص أخرى تكشف للقارئ مشهديات الصور وتنوعها.
- في الأخير، نقول إن المناصرة قد أحدثت سمات جديدة في شعرية المقاومة، وحقق الحداثة الجمالية، منطلقاً من استراتيجيات تاريخية وفنية مميزة.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- عز الدين المناصرة، لا أستطيع النوم مع الأفعى، دار مجدلاوي، الأردن، (د.ط)، 2011، ص 253.
- 2- عز الدين المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2000، ص 431.
- 3- عدنان علي رضا النحوي، ملحمة فلسطين، مؤسسة الإسرائ، الجزائر، ط3، 1991، ص 23.
- 4- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005.
- 5- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط5، 1994، ص 192.
- 6- ينظر: المرجع نفسه، ص 192.
- 7- محمد حسن عبد الله، أساطير عابرة الحضارات (الأسطورة والتشكيل)، دار قباء للطباعة، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 187.
- 8- أحمد سويلم، الأساطير في الشعر المعاصر، مجلة الفيصل، ع 89، 1984، ص 67.
- 9- عز الدين المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، ص 50.
- 10- وليد بوعديلة، شعرية الكنعنة، تجليات الأسطورة في شعر عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، 2008، ص 226.
- 11- عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، ج1، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص 21.
- 12- عز الدين المناصرة، المصدر نفسه، ص 21.
- 13- المصدر نفسه، ص 21.
- 14- المصدر نفسه، ص 21-22.

- 15- عز الدين المناصرة، لن أنام مع الأفعى، ص 11.
- 16- المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، ص 435.
- 17- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر، 1997، ص 195.
- 18- عبد الكريم خليفة، معجم الألوان، بحث ألقى في المؤتمر الثالث والخمسين في مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1997.
- 19- عز الدين المناصرة، تخصص في ميادين كثيرة، فهو شاعر وناقد وباحث أكاديمي في الشعر والفنون والرسم السينما والمسرح، له مؤلفات في مجالات أدبية ونقدية وفنية متعددة.
- 20- المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، ص 502.
- 21- المناصرة، الأعمال الكاملة، ج 1، ص 457.
- 22- المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، ص 435.
- 23- المصدر نفسه، ص 91.
- 24- المناصرة، الأعمال الكاملة، ج 1، ص 501.
- 25- نوري جودي القيسي، الألوان وإحساس الشاعر الجاهلي بها، مجلة الأقلام العراقية، السنة 5، ج 11، 1969، ص 68.
- 26- محمد سعد فشوان، مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، 1986، ص 108.
- 27- المرجع نفسه، ص 108.
- 28- المناصرة، الأعمال الكاملة، ج 1، ص 10.
- 29- علوي الهاشمي، ما قالته النخلة للبحر، دراسة فنية في شعر البحرين المعاصر، دار الحرية للطباعة والنشر، (د.ط)، 1981، ص 63.
- 30- المناصرة، الأعمال الكاملة، ج 2، ص 359.
- 31- ينظر: وليد بوعديلة، شعرية الكنعنة، ص 434.
- 32- المناصرة، الأعمال الكاملة، ج 2، ص 439.
- 33- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2002، ص 229-228.
- 34- ينظر: المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة، ص 329.
- 35- هلال جهاد، جمالية الشعر العربي، مركز دراسات الدوحة العربية، لبنان، ط 1، 2007، ص 330.
- 36- المناصرة، الأعمال الكاملة، ج 1، ص 100.101.102.

قائمة مراجع البحث:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 2005.

- 2- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2002.
- 3- أحمد سويلم، الأساطير في الشعر المعاصر، مجلة الفيصل، ع89، آب (أغسطس)، 1984.
- 4- عبد الكريم خليفة، معجم الألوان، بحث ألقى في المؤتمر الثالث والخمسين في مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1997.
- 5- عدنان علي رضا النحوي، ملحمة فلسطين، مؤسسة الإسراء، الجزائر، ط3، 1991.
- 6- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط5، 1994.
- 7- عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، الجزء الأول، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 2006.
- 8- عز الدين المناصرة، شاعرية التاريخ والمكنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2000.
- 9- عز الدين المناصرة، لا أستطيع النوم مع الأفعى، دار مجدلاوي، الأردن، (د.ط)، 2011.
- 10- علوي الهاشمي، ما قالته النخلة للبحر، دراسة فنية في شعر البحرين المعاصر، دار الحرية للطباعة والنشر، (د.ط)، 1981.
- 11- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر، 1997.
- 12- محمد حسن عبد الله، أساطير عابرة الحضارات (الأسطورة والتشكيل)، دار قباء للطباعة، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 13- محمد سعد فشوان، مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، مكتبة
- 14- نوري جودي القيسي، الألوان وإحساس الشاعر الجاهلي بها، مجلة الأقلام العراقية، السنة 5، ج11، 1969.
- 15- هلال جهاد، جمالية الشعر العربي، مركز دراسات الدوحة العربية، لبنان، ط1، 2007.
- 16- وليد بوعديلة، شعرية الكنعنة، تجليات الأسطورة في شعر عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، 2008.